مناقشات ٢

سوانح وبوارح الرأي والرأي الآخر *

هيثم يحيى الخواجة

لا بد لي في البداية أن أقدم جزيل شكري لرئيس تحرير **الآداب**[1] الأستاذ سهيل ادريس الذي خصص فسحة في المجلة لـ «جماعة المسرح والتراث العربي» وما زال يفعل ذلك لما يرد من مقالات. كما أشكر كاتب مقال «هل في الإعادة إفادة» الأستاذ محمد منصور الذي يعقّب فيه على ملف «جماعة المسرح والتراث العربي» المنشور في **الآداب** ٩/١٠/١٩٩٦ ص ٦٥ ـــ ٧١؛ فقد أثار الكثير من التساؤلات حول كتابته المتعجلة ففتح باباً للحوار... مع أنني كنت أتمنى عليه دراسةَ جميع البيانات دراسةً متعمقة وأن يتوقف عند جميع ما ذُكر فيها ـ وأخص بالذكر البيانات: الأول والثاني والثالث ـ لكونها تتضمن إجابة دقيقة عن طروحاته.

عنوان المقال «هل في الإعادة إفادة» بُنِيَ على خطئين. الأول: أنّ الجماعة لم يردْ في بياناتها ما يشير الى «إعادة» بكل ما تعنيه هذه الكلمة. والثاني: أنّ من أهم أهداف الجماعة متابعة مسيرة البحث والتقصي في تأصيل المسرح العربي ما دام هذا التأصيل لم يتبلور بعدُ بشكل كامل؛ ولذلك فهو هدفٌ للدارسين والباحثين والنقاد.

يقرر كاتبُ المقال ومنذ الجملة الأولى بأنّ «جماعة المسرح والتراث العربية» لا تأتي بجديد، مع أنّ ذلك من المفترض أن يكون نتيجةً لمسوِّغات يعرضها تُقنع القارئ. لكن النتائج جاءت قبل المقدمة والعرض.

والغريب أنّ الكاتب ينصّب نفسَه وصيّاً على المسرح والفكر، فيتساءل عن سبب قيام «الجماعة» قائلاً: «أي أن تأسيس هذه الجمعية هو الذي يطرح تساؤلات، ويثير استفهامات، ويستدعي مناقشات؟!!».

إن اختلاف وجهات النظر ظاهرة صحية، وأسلوبٌ للتقدم وملامسة العمق. لكن الذي لا يمكن أن يكون ظاهرةً صحية هو الرأي الذي تكتنفه السرعة أو المواقف المسبقة!

ورد في المقال: «أنّ طروحات حول التراث تم تداولها في مهرجان دمشق للفنون المسرحية منذ حوالي عقدين ونيف»... وهذا كلام صحيح، لكنّ الذي يدعو إلى التساؤل هو ما الذي يضير لو تابعنا الحوار؟ فمن البدهي أن نعرف أنّ باب الحوار المعرفي الساعي إلى تعميق أية فكرة أو موضوع بابٌ مفتوح حتى قيام الساعة. وما أورده الناقد محمد مندور أو الأديب يوسف ادريس ليس نهاية المطاف في الحوار والمعرفة. وإذا كنا نثمّن بيانات المسرحي العربي الكبير سعدالله ونوس التي نشرها في مجلة **المعرفة** عام ١٩٧٠ لعمقها ودلالاتها ورؤاها الدقيقة، فإنّ هذا أيضاً لا يعني نهاية المطاف، لأن الحوار ـ كما أسلفتُ ـ أسلوب من أساليب الوعي لتعميق المعرفة مهما اختلفتْ وجهات النظر وتعددت.

ويتابع كاتب المقال: «واللافت هو أنّ جمعية المسرح والتراث العربية تأتي في هذا الزمن المتأخّر لتتبنّى قضيةً قديمة برؤية أكثر تقليدية مِنْ كثير من الطروحات والاجتهادات التي سبقتْها زمنياً...». كان من الأجدى قبل أن يطرح الكاتبُ على القارئ هذه النتيجة أن يورد ملخّصاً عن بيانات «الجماعة» كلها (للاستشهاد) لأن «البيان صفر» و«البيان الأول» ليسا وثائق «الجماعة» **وحدهما. لقد استنتج منصور من** بعض البيانات فقط، ولهذا قصّرتْ مقالته عن الرؤية الشمولية. ومن حسن الطالع أن تُنشرَ دراسة جادة لنضال بلال حول بيانات الجماعة في عدد **الآداب** نفسه بعنوان: «طموح نحو النظرية» ومما جاء فيه: «ولما كانت الدعوة للانبعاث وجهاً من وجوه المعاصرة فإنّ جماعة المسرح والتراث العربية هي أحد المشاريع الجادة لتأسيس نظرية متميزة في المسرح العربي، وذلك على أسس نظرية علمية واعية تعتمد التراث العربي منطلقاً وتستمد منه نسغَ الحياة لوجودها».

إنّ ما توصل اليه الناقد نضال بلال قد نتج عن دراسة تحليلية دقيقة وواعية لبيانات الجماعة. هذا أمر، والأمر الآخر أنّ كاتب المقال [منصور] لم يستوعبْ أهمية يوسف إدريس في المسرح العربي؛ فعندما ذكر مسرحية **الفرافير** أشار إلى قضايا مسطّحة، مع أنّ المسرحية [المذكورة] علامة وتحول نوعي في المسرح العربي من جوانب كثيرة لا مجال لذكرها الآن. كما لم يُشِرْ إلى توفيق الحكيم ورأيه بالتراث وأسلوب توظيفه، وبقيتْ مراجعته لبيانات المسرحي سعد الله ونوس قاصرة أيضاً.

يوضح المسرحي فاروق أوهان رئيس «جماعة المسرح والتراث العربية» في البيان الثاني أهدافَ الجماعة قائلاً: «إنّها دعوة إلى توحيد

---

* ـ تعقيباً على مقالة محمد منصور المنشورة في **الآداب** ١/٢ ١٩٩٧، ص ٨٢.

١ ـ كذا في الأصل (**الآداب**).

الجهود نظراً لما لاقته المبادراتُ المسرحية العربية الكثيرة والمختلفة من إهمال وتنكّر على الرغم من انطلاق هذه المبادرات من حسّ فني وقومي عربي...». إنّ «الجماعة» تناقش التراث لا لتقف على رصيفه أو تثير زوبعةً على هامشه أو تعتمد الابتذال أو الاجترار أو التكرار... إنها تدرك تماماً بأنّ موضوع التراث نوقش في محافل عديدة ومنذ ثلاثين عاماً أو أكثر أو أقل... ولكنها تنطلق مِنْ أنّ مَن لا قديم له لا جديد له.

إنها تناقش التراث انطلاقاً من الوعي، وتماهياً مع المعاصرة، وارتباطاً بالتجريب وآفاق العمل، لتقريب المسافة بين الجمهور وهذا الفن. هذا النقاش يكتسب مشروعيته من مفاهيم قومية تمقت التبعية من جهة، وتفتح النوافذ على العالم من جهة أخرى للاحتكاك والتلاقح والمثاقفة. ومن ذلك تغدو الاستفادةُ من عالمية هذا الفن في سبيل التأصيل أكثرَ رسوخاً في مناقشة ظرف إنساننا العربي ومعاناته ومن ثم الانطلاق إلى الإنسان في كل زمان ومكان، وبذلك يصبح مسرحنا العربي أكثر فاعلية وقدرة. فالدعوة الى التراث ليست تقوقعاً ولا انغلاقاً، وبالتالي ليست رداً على الاتجاهات ذات النتاجات الغربية. إنها موقف لبلورة سمات المسرح العربي. ومن هنا تتضح مسوِّغاتُ «جماعة المسرح والتراث العربي» في دعوتها الى قراءة التراث وتوظيفه في المسرح، لا من منطلق القسر أو القولبة، وإنما من منطلق الفهم والوعي والقدرة على الاستفادة منه شكلاً ومضموناً، وحسب مقتضيات هذا الفن وابداعاته، وكل ذلك من منطلق قاعدة الحرية الفكرية التي اعتُمدتْ مداكاً ومستنداً رئيساً للانطلاق. وما يؤيد ذلك أن منهج «جماعة المسرح والتراث العربي» يفتح الآفاق أمام كل الأعضاء لكي يكتبوا. وبهذا الصدد طرحت «الجماعةُ» مشروعَ المناظرات المسرحية ليكون مساحةً رحبة للاتفاق والاختلاف والحوار والنقاش لأنه سينتج عن ذلك تعميقٌ وتبلور للنظرية.

وما أستغربه في هذا الصدد أنّ كاتب المقال يستنتج استنتاجات لا أدري كيف توصل اليها، فيقول مثلاً: «من الواضح أنّ التأصيل يعني هنا تأصيلاً في الشكل كما يوضح البيان الذي يرفض الأشكال المسرحية الغربية، كما يرفض تزيينها بموروثات شعبية عربية». إنّ البيان الذي يشير إليه يفسح المجال لكي يُعمل المسرحيُّ العربيُّ ذهنه في إبداع مسرحه مستفيداً من التراث شكلاً ومضموناً دون أن يتخذ من مسرح الغرب منهجاً، كما يدعو الى عدم التهجين خوفاً من التشويه والقبح في الفن.

وإذا كانت تجربة سعدالله ونوس في **مغامرة رأس المملوك جابر** تستند الى ظاهرة تراثية فنية اتحد فيها الشكل والمضمون، فإنّ بيانات «الجماعة» تشير وبوضوح إلى أهمية تجربة ونوس عامة وإيمانها بها.

وفي «البيان صفر» ينطلق المسرحي فاروق أوهان من قراءة لتجربة الفنان عبد القادر علولة. وفي «البيان الأول» يحدد المسرحي عبد الفتاح رواس قلعه جي الانطلاقة من النص. وهذا صحيح، ولكنه لا يعبّر عن تناقض، ذلك لأن «الجماعة» تؤمن بتعدد الآراء وبالحوار المفتوح كي تتبلور النظرية الشاملة من الحوار لا قبله. هذا أمر. والأمر الثاني هو أنه ما دام النص جزءاً من التجربة، وما دامت التجربة تعتمد في حالة من حالاتها على النصّ، فإن منطلق المسرحيَيْن أوهان وقلعه جي يلتقيان في محور الرؤية الحركية باعتبار أنّ النص في رأي «الجماعة» ليس منغلقاً. كما أن التجربة دائمة الحيوية والتجريب على النص الذي هو أساس كل عرض يتواصل مع الجمهور. والأمر الثالث الذي يجب أن يعرفه كاتب المقال هو أن ما كتبه أوهان صادر عن وعي، وما كتبه قلعه جي صادر عن وعي أيضاً، ولهذا تطابقت الرؤية والنظرية وتكاملت.

لقد أكدت «الجماعة» في بياناتها أهميةَ الغوص وبقوة في واقع الحياة العربية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. كما تؤمن بأهمية التنظير الواعي المواكب للحركة المسرحية العربية التي لولاها لما وُجدتْ مثلُ هذه «الجماعة» التي تؤمن بالرأي والرأي الآخر، وتسعى الى استمرار الحوار بعيداً عن كل ما يخطر ببال البعض من بحث في الفراغ، وإطلاق تسميات لا طعم لها ولا لون جرّاء سوءِ استخدام المصطلح. فنحن نفهم «الأصولية» بمعناها المعجمي لا كما جاءتنا كمفهوم حديث من الغرب. وما يؤسفُ له أنّ من عيوب البعض استعادة المفاهيم الغربية ومصطلحاتها دون وعي لأغراضها وأهدافها وسبب تصديرها.

الأصولية القاموسية تعني الأصالة، تعني الأسس والمداميك. أما ما يشاع عن الأصولية من مصطلحات سياسية فلا علاقة لنا بها، ونحن بعيدون عنها وضدها، ما دامت تخرج من أبواق غربية لتحقق أهدافاً معينة لا مجال لبحثها. ورغم أن ورود كلمة «الأصولية» في مقدمة ملف «جماعة المسرح والتراث العربية» التي كتبها سامح ادريس* نوع من الانحياز، إذْ كان من المفترض أن يكون أكثر حيادية، وأن يبتعد عن الوصاية والتأثير على الآخرين من منطلق الإيمان بأن منبر مجلة **الآداب** منبر موضوعي يطرح الموضوع كما يريده الكاتب، فإنّ هذا النفور لم يؤثّر على نظرية «الجماعة» الواعية.

وأخيراً، فإنّ «جماعة المسرح والتراث العربية» تؤمن بآفاق الإبداع والتجريب وربط المسرح بمعاناة الإنسان ورؤاه وواقعه دون قيود تقيّده سوى قيود إقناع الجماهير والتواصل معها.

هذا ولا بد أن أشير الى أنّ الذين كتبوا بيانات «الجماعة» والذين انتسبوا اليها لهم باع طويلة في مجال المسرح نقداً وتأليفاً وإخراجاً وتنظيراً. ولو راجع كاتبُ المقال [محمد منصور] هذه الأسماء مراجعةً سريعةً لتأكّد أن هؤلاء أصحاب تجارب تمتد لأكثر من عشرين عاماً على الأقل وبعضهم أكثر من ثلاثين عاماً... ولولا تعلقهم بالمسرح وحبهم له وتشبعهم بأفكار تفيده لما كتبوا من أجله ولما أسسوا هذه «الجماعة».

---

* ـ كذا في الأصل .وكان رئيس التحرير قد ألمَعَ في مقدمة الملفّ المذكور إلى «عدم تبنّي [المجلة] جميع ما جاء فيه ولاسيما ما قد يُشْتَمُّ فيه من 'أصولية مسرحية'». ووافقه منصور على ذلك. (الآداب)